# الفصل الأول

## النظرة الحديثة لتحديد المستوى اللغوى

### أسس النظرة الحديثة

١ — مراعاة المستوى الاجتماعى لاستعمال اللغة

٢ — مطابقة العرف اللغوى لنظام صحة اللغة

٣ — الاقتصار فى اللغة على زمن خاص و بيئة خاصة

٤ — اعتبار التطور فى اللغة

٥ — المستوى اللغوى نشاط للمتكلم بصفه الباحث

# أسس النظرية الحديثة للمستوى اللغوى

يلبغى معرفة أن الأسس التى ستشرح فى هذه الفقرة ليست أفكارا مستقلة يمكن أن ينظر لكل واحد منها على انفراد ، بل هى أسس متكاملة متعاونة ، يتحقق للمتكلم بالتوافق معها صحة نطقه ، كما أن مخالفتها جميعا كمخالفة أحدها على انفراد ، كلاهما يؤدى إلى خروج الكلام عن مستوى الصحة ، ويؤدى إلى وصفه « بالخطأ » .

والمستوى الصوابى فى عبارة واحدة هو ( مراعاة العرف اللغوى المقتصر على بيئة خاصة فى زمن خاص مع اعتبار التطور فى اللغة — يتوافق معه نشاط المتكلم ويلاحظه الباحث بهذه الصفات

هذا هو المستوى الصوابى بإجمال ، وحول هذه العبارة جاء حديث اللغويين المحدثين عنه ، سواء فى ذلك الحديث المباشر عن هذه العبارة وحدة واحدة ، مما يطلق عليه أحيانا اسم « المستوى الصوابى » Standard of Correctness ، كما صنع « أوتوجسبرسن » فى كتابه « اللغة بين الفرد والمجتمع » و « جاردنر » فى كتابه « الكلام واللغة » والدكتور تمام حسان فى كتابه « اللغة بين المعيارية والوصفية » ومن ذلك حديثهم عنه بطريقة مباشرة أيضا فيما يتعلق بالأفكار السابقة منجمة ، من حيث اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية يصدق عليها ما يصدق على غيرها من أنواع السلوك الاجتماعى الأخرى ، ومن حيث مراعاة العرف اللغوى فى قبول الكلام أو رفضه دون تحكم أو اقتراض ، واقتصار هذا العرف على زمن خاص وبيئة خاصة ، لأنه إذا لم يحدد الزمن والبيئة ، تعرض النطق والدراسة كلاهما للخلط وعدم الدقة ، إذ لا يصح أن يتحكم عرف لغوى لبيئة خاصة فى بيئة

أخرى ، كذلك لايصح أن يفرض مستوى لغوى مأخوذ من فترة زمنية معينة لإحدى اللغات على فترة أخرى ، وإلا أدى الأمر للتحكم والاضطراب، ويؤخذ فى الاعتبار كذلك ما قرره المحدثون من تطور اللغة باستمرار ، لأن الحكم على اللغة بالتوقف فكرة غير سليمة وغير عملية ، لا تتفق مع تطور اللغة الذى لا قدرة لأحد على إيقافه والوقوف فى طريقه .

والمستوى الصوابى يتعلق بنشاط المتكلم ، إذ هو معيار يراعيه فى كلامه — عن غير قصد فى الغالب — ويتنبه أو يتنبه له قصدا إذا حدثت مخالفته له ، أو إذا كان فى موقف التعلم للغة ،حيث يلقن من قواعد النحو وجداول التصريف ما يجب عليه مراعاته فى استعماله اللغة المتعلمة .

أما دور الباحث فهو دور من يقوم بوصف نشاط يؤديه الناطقون وكيفية هذا الأداء وأسسه،وليس دوره وضع قواعد جامدة يصب فيهانشاط المتكلمين باللغة ، فما وافقها فهو صواب وما خالفها فهو خطأ ، فهذا الموقف — علاوة على أنه تحكمى وغير علمى — تجاوز لعمل الباحث وهو الوصف إلى اتخاذ موقف الناطق وهو المعيار ، وإن كان هناك فرق بين معيار الباحث ومعيار مستعمل اللغة ، الأول تحكمى ذو سلطة والثانى تلقائى ولا سلطة فيه .

يقول جاردنر :

يجب أن يتسع مجال الرؤية إلى حد يسمح بإعطاء فكرة موجزة عن الكلام الخاطىء ، والإشارة إلى هذا الموضوع تعنى وجود مستوى لغوى ربما أغفله المتكلم أو عجز عن الوصول إليه ، ومن أجل هذا يجب أن نسأل أنفسنا أولا ، ما هى اللغة ؟ ومن صاحب السلطة فى وضع القواعد والأسس والاستعمالات والكلمات التى يجب التزامها وتفرض على الجميع !! وهذه

أسئلة سهلة ، ولكن الإجابة عليها عسيرة ؟ ! فهناك تقدير تقريبي للموضوع من رأيه أنه كما يقف الفرد وراء كلامه ليدافع عنه ، فإن المجتمع اللغوى يقف أيضا وراء اللغة عموما .

ونحن إذا أنعمنا النظر أكثر ازدادت صعوبة الموضوع ، فهناك اللهجات المحلية والطبقات الاجتماعية وكل من النوعين له نظامه وعاداته اللغوية الخاصة ، وحتى وقتنا الحاضر يسود اعتقاد فى إمكان وضع مستوى حاسم يعتبر عاما وغير قابل للنقض ( يقصد القواعد ) ، وكان السائد فى الجيل الماضى — بالنسبة للمؤلف — اتجاه اللغويين إلى النظرة للغة نظرة معيارية صرفا ، فقد كان النحو فى نظرهم مهمته تدريس قواعد صحة الكلام ووظيفة المعجم ليس إعطاء معانى الكلمات فقط ، بل الإشارة أيضا إلى ما يجب أن تعنيه الكلمات ، ولكن الاتجاه الآن يسير فى اتجـــاه آخر مناقض تماما لذلك الاتجاه المعيارى ، إذ أصبحت المؤلفات اللغوية — فى جزئها الأعظم — تصف الاستعمال اللغوى فى صورتيه الماضية والحاضرة .

ويضيف بعد ذلك قوله : لا يعد النحو ولا المعجم وافيا بالمراد منه إلا إذا اعترف وسجل الدرجات التى تقع بين الكلام المتفق على صوابه والكلام المتفق على خطئه ، وأنه يجب أن تمزج النظرة المعيارية بالدراسة الوصفية الصرفة واضعين فى الاعتبار أن اللغة فى أى لحظة من لحظاتها ليست فقط ما هو كائن بالفعل ، وإنما ما سيكون فى المستقبل أيضا ، فاللغة فى حركة دائمة وفى تطور دائم (١) .

ففى النص السابق يتساءل « جاردنر » عن تحديد السلطة التى تقرر

---

(١) Speech and Language, P. 170 - 171

القواعد والأسس والاستعمالات والكلمات ، ويجيب بأنها «المجتمع اللغوى الذى يقف وراء اللغة عموما » .

وبهذا الحرص نفسه يقرر وجوب مراعاة اختلاف البيئة فى « اللهجات المحلية والطبقات الاجتماعيـة فلكل من النوعين نظامه وعاداته اللغوية الخاصة » .

ويرفض « جاردنر » وضع مستوى حاسم من القواعد المعيارية يعتبر عاما وغير قابل للنقض وإن كان هـذا أمرا سائدا قبل عصره وفى عصره ، فالبحث فى اللغة الآن يتناقض مع المنهج المعيارى، إذ يقصر مهمته على وصف ما يدخل فى الإمكان من صور الاستعمال فى الماضى والحاضر فقط ، دون فرض نتائجه على المستقبل .

وهو أخيراً يقرر اعتبار « تطور اللغة » ، « لأن اللغة فى أى لحظة من لحظاتها ليست فقط ما هو كائن بالفعل، وإنما ما سيكون فى المستقبل ، فاللغة فى حركة دائمة وفى تطور دائم »

تلك هى النظرة الحديثة وأسسها إجمالا ، وفيما يلى بيان لكل أساس منها على حدة واضعين فى الاعتبار — كما ذكرنا — أن كلا من هذه الأسس ليس له استقلال منفرد ، وأنه يؤدى دوره باعتباره عنصرا من جهاز متكامل .

١ — مراعاة المستوى الاجتماعى لاستعمال اللغـة

فى كل مجتمع من المجتمعات ـ مهما كان صغيرا ـ توجد مجموعة من المظاهر الاجتماعية التى تسود بين أعضائه ، حيث ينظر إليها على أنها مجموعة من الأصول السلوكية التى ينبغى مراعاتها كما ارتضاها المجتمع ، وذلك كالعادات والتقاليد والملابس والأسواق وطريقة المعيشة واللغـة ، وهذه المظاهر

العرفية ليست من صنع أحد من أفراد الجماعة ، وإنما هى ميراث من العادات العرفية التى تكونت على مر السنين ، وارتضى أفراد المجتمع عامة الخضوع لها ومراعاتها ، ولكى يعيش الفرد متوافقا مع مجتمعه يجب أن ينسجم سلوكه مع المظاهر الاجتماعية العرفية ، وإلا تعرض لعقوبات تتدرج من السخرية منه ، إلى الامتناع عن مزاملته وصحبته ومعاملته ، إلى العقوبات القانونية الرادعة — كما هو الحال فى حالة الجريمة — وكل هذه أنواع من الضغوط الاجتماعية العنيفة التى يتعرض لها الفرد إذا خرج على السلوك العرفى المقرر للجماعة ، ولنفترض أن إنسانا ما خلع كل ملابسه ، وسار فى أحد شوارع القاهرة عاريا كما ولدته أمه ، أو أن إنسانا آخر ارتدى زياً غريباً على الناس ، فخرج عليهم « بطربوش » طويل تعلوه قبعة ، وتحته جلباب بلدى قصير إلى ما فوق الركبة ، وشراب ملون بدون حذاء ، ولنا حينئذ أن نتصور مدى الدهشة والسخرية التى يقابل بها الناس كلا منهما ، وما يصب عليه من لعنات ، بل ربمـــا أقدم أحد المارة فى الشارع على الإمساك به وتقديمـه إلى أقرب مركز للشرطة أو إرساله إلى مَصَحّ للأمراض العقلية .

ومثل الملابس غيرها من أنواع السلوك الأخرى ، فنحن مثلا أمة مسلمة إذا أظلها شهر رمضان ، فرض العرف الدينى على الناس الامتناع عن الطعام والشراب وكل أنواع المفطرات ، فلنفترض أن شخصاً ما وقف فى نهار رمضان فى أحد المساجد وهو يلتهم الطعام ويعب الماء عياناً بياناً ، فماذا يكون مصيره ؟ ! أغلب الظن أن شعور الاستياء العام سوف يعم كل من يتصادف وجوده فى المسجد حينئذ من هذا السلوك الشاذ ، وسيقدم الكثيرون منهم على سبه وردعه وطرده من المسجد ، وربما نالته من أحدهم عقوبة بدنية قاسية .

يقول « سابير Sapir » : إننا باعتبارنا كائنات بشرية لا يمكن أن توجد خارج المجتمع ، حتى إنه لو وضع شخص ما فى زنزانة منفردا ، فإنه مع ذلك لا يزال موجودا فى المجتمع ، لأنه يحمل أفكاره معه ، وهذه الأفكار مهما كانت خاصة به ، فإنها تكونت بمساعدة الجماعة ، فنحن لا نحصل على خبرة مالها طابعها الاجتماعى بصفتنا الفردية ، مهما بلغت درجة اهتمامنا بها(١) .

ويقول « جسبرسن O, Jespersen » : إن وجود قواعد تحكم السلوك الاجتماعى الإنسانى من الأمور المسلم بها ، وتبعاً للظروف الاجتماعية المختلفة يختلف سلوكنا الاجتماعى . . . . والقاعدة السلوكية هى الحكم بقبول سلوك معين أو رفضه تبعا لما يقضى به العرف الجماعى(٢) .

فالإنسان ـ كما يرى سابير ـ لا يمكنه أن يعيش خارج مجتمع ما ، وهو بذلك يستمد خبراته الاجتماعية من هذا المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن ذلك بالطبع كل أنواع السلوك التى تعارف عليها المجتمع ، وهو فى الوقت نفسه يقوم بحراستها وإلزام الأفراد بها ، وذلك ـ كما يقول جسبرسن ـ بوجود قواعد سلوكية تصبح بفعل العادة من البدهيات التى لا تناقش ، والقواعد السلوكية ما هى فى الحقيقة إلا التعبير غير المحسوس عن عرف الجماعة فيما تقبله أو ترفضه .

واللغة من بين المظاهر الاجتماعية المختلفة عامل أساسى من عوامل الاتصال بين الناس ، والوصف « أساسى » وصف مقصود هنا ، لأن عوامل الاتصال بين الناس ـ كما يقول سابير ـ تنقسم إلى عوامل ثانوية ،

---

(١) Selected Writings of Edward Sapir, P. 539.

(٢) انظر : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٣٣ .

وهى التى تظهر فى فترات خاصة، وذلك عند بلوغ شعب ما مستوى حضارياً معيناً ، بينما العوامل الأساسية تعتبر عامة وضرورية لكل الناس ، ومن أهمها اللغة والإشارة فى أوسع معانيها وتقليد السلوك والإيحاءات الاجتماعية واللغة هى أحسن هذه الوسائل من حيث الوضوح والتحديد .

فلا يمكن أن يتصور مجتمع بدون لغة ، واللغة ـ من ناحية أخرى ـ تدين بوجودها للمجتمع ، إذ أن حاجة الناس إلى الاتصال والتفاهم قد دفعتهم دفعاً لإيجاد الوسيلة التى تحقق لهم وجودهم الاجتماعى ، فكانت اللغة هى أرقى هذه الوسائل .

وقد دار بين العلماء حوار طويل حول اعتبار اللغة أداة تعبير عن الفكر أو وسيلة للاختلاط الاجتماعى .

والحق أنه لا يمكن أن تجرد اللغة للتعبير عن الفكر وحده ، كما أنه لا يمكن أن تعتبر وسيلة سلوكية فقط كأى فعـــل من الأفعال ، فالانحياز الحاسم إلى هذا أو ذاك لا يتفق مع استعمال اللغة فى الواقع ، فليست حياة الناطقين باللغة ـ أية لغة ـ تفكيرا مستمرا مضنيا تعبر عنه الألفاظ والعبارات فى قوالب منطقية محددة بأسوار الفكر باستمرار ، وليست حياة الناطقين أيضا خالية تماماً من الأمور الذهنية العميقة ، ومقتصرة على الاتصال الاجتماعى الميسر ، حيث تستعمل فيه اللغة لتحقيق الرغبات أو نقلها للآخرين أو سؤالهم عنها أو إغرائهم بفعلها واستمالتهم لذلك أو التسلية والمتعة .

فالحق أن اللغة تعبر عن هذا وذاك ، وإن كان التعبير عن الفكر يبدو أمرا ثانوياً بالنسبة للوظيفة الأساسية للغة ، لأن استخدام اللغة فى الأمور

الذهنية جانب واحد فقط من جوانب استخدام هذه الأداة الرائعة فى شئون الإنسان الاجتماعية المتنوعة .

فاللغة تستخدم فى الفكر والمسائل الذهنية أحياناً ، وتستخدم فى تحقيق الصلة الاجتماعية بين الناس فى معظم الأحيان ، ومع ذلك فإن استخدامها فى المسائل الذهنية مظهر أيضاً من مظاهر الصلة الاجتماعية على مستوى الفكر ، لأن صلة الناس لا تتحقق بالأمور العادية فقط ، بل تتحقق كذلك على مستوى أرقى هو مستوى الأفكار الذهنية المجردة .

وبناء على ذلك فإنه لا يصح عزل الجانب الذهنى وحده ثم الانحياز له مقابل استخدام اللغة على أنها مسلك اجتماعى لتحقيق الصلة بين الناس ، فإنها فى هذا الجانب الفكرى لم تخرج عن كونها مسلكاً اجتماعياً لتحقيق الصلة الفكرية بين الناس .

هذا المظهر الاجتماعى الهام — استعمال اللغة — يصدق عليه مايصدق على المظاهر الاجتماعية الأخرى ، من خضوعه للعرف الاجتماعى العام الذى يفرض عليه قواعد السلوك الخاصة به ، كما يفرضها على غيره من أنواع السلوك المختلفة التى تسود المجتمع .

فمراعاة العرف الاجتماعى تشمل اللغة كما تشمل غيرها من أنواع السلوك الأخرى ، فالمتكلم يستعمل لغة المجتمع الذى نشأ فيه ، ويتطابق معها تلقائياً دون تفكير فى ذلك ، كشأنه فى كل الأمور العرفية الأخرى من العادات والتقاليد والملابس وغيرها .

## ٢ — مطابقة العرف اللغوى لنظام صحة اللغة

ينبغى توضيح الأمور الآتية باختصار :

١ — المقصود من العرف اللغوى .

٢ — الصلة بين العرف الاجتماعى وعرف صحة اللغة .

٣ — السلطة اللغوية بين التوقيف والعرف .

المقصود بعرف اللغة : نظامها أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب حسب أصول استعمالية خاصة بالمستوى الاجتماعى الذى يتداولها فيه أفراده إذ يجيدها هؤلاء الأفراد بالمشاركة والمران .

فالعربية الفصحى مثلا لها نظامها الخاص بها فى المظاهر السابقة ـ أصواتاً وصيغاً ومفردات وتراكيب ـ والذى حدد لها هذا النظام وقرره هو عرف الاستعمال الذى جاء به تراثها الدينى والعلمى والأدبى ، ونطقها فى المواقف الجادة والعامة حيث لا يصلح فى كليهما غيرها ، وينطبق ذلك أيضاً على اللهجات المحلية واللغات الخاصة ـ على كثرتها ـ فلكل منها أيضا عرفها اللغوى فى هذه المظاهر نفسها .

والصلة بين العرف الاجتماعى ـ الذى سبق شرحه ـ والعرف اللغوى الذى نحن بصدده أن مراعاة المتكلم لكلا الأمرين ـ الاجتماعى واللغوى ـ يحقق لكلامه المستوى المطلوب للقبول ، أما إذا راعى العرف الاجتماعى دون اللغوى فإنه حينئذ يقع فى الخطأ والتخليط . وإذا حدث العكس من مراعاة العرف اللغوى وحده مع إغفال العرف الاجتماعى ، فإن كلامه يكون صحيحاً من الناحية اللغوية ، لكنه فى الوقت نفسه لا يحقق المستوى المطلوب لقبوله ، وحينئذ يتعرض كلامه لرد فعل اجتماعى عنيف قوامه السخرية به أو رفضه .

لنفترض أن مؤتمراً عربيا عاماً عقدته الجامعة العربية للتداول فى شأن من شئون التعليم أو الإعلام أو السياسة ، يحضره ممثلون من كل الأقطار

العربية ، ووقف فيه أحد الأعضاء وهو يتحدث الفصحى دون مراعاة كاملة لنظامها الصوتى أو الصرفى أو التأليف بجلها وإعرابها أو خلط فى حديثه أحيانا بين الفصحى والعامية ، فماذا تكون النتيجة ؟

الذى أتوقعه أن هذا المتحدث ربما أدى مهمته فى الإفهام ، ولكنه فى الوقت نفسه سيترك فى نفوس المؤتمرين مرارة وسخرية ، والسبب فى ذلك أنه راعى العرف الاجتماعى فتحدث الفصحى ، لكنه أغفل العرف اللغوى للفصحى ، فافتقر كلامه إلى الصحة .

ولنفترض فى هذا المؤتمر نفسه أن وقف أحد الأعضاء يتحدث لهجته المحلية ـ السودانية أو العراقية أو السورية أو المصرية ـ فماذا تكون النتيجة ؟

أغلب الظن أن كثيراً من الحاضرين لن يستوعبوا حديثه كاملا ، مع أنه قد راعى المستوى الصوابى للهجته الخاصة ، فكلامه صحيح من هذه الناحية ، لكنه فى الوقت نفسه أغفل العرف الاجتماعى المتمثل فى أعضاء المؤتمر القادمين من أقطار عربية مختلفة ، ويحتم عليه هذا المستوى الاجتماعى العام أن يخاطبهم بالفصحى ، ويترتب على إغفال ذلك أن يصبح فهم كلامه متعسراً ، وهذا أضعف الإيمان ، وأقواه أن يسخر منه أحد الأعضاء أو يقاطعه أو يرفض الاستماع إليه ، وقد يترتب على ذلك فشله فى أداء مهمته التى جاء من أجلها .

وهذا المعنى السابق هو الذى يفسر لنا تلك النوادر الطريفة التى جاءت عن بعض النحاة قديماً كعيسى بن عمر ( ت ١١٧ ) وأبى علقمة النحوى حيث كانوا يلتزمون مستوى خاصاً فى استعمال اللغة يغربون به على السامعين

من العوام ، وقد لحق كلا منهما — كما جاء فى كتب طبقات النحاة — كثير من السخرية والأذى .

ولعل أوضح ما يعبر عن ذلك فى وقتنا الحاضر تلك العبارة الساخرة التى يطلقها أحيانا أحد « أولاد البلد » من المصريين فى وجه من يخاطبونه بالفصحى فى شئون الحيـــاة العادية ( يتكلم بالنحوى — بفتح الحاء ) وربما أتبع ذلك بحركات من يديه ووجهه ولسانه ، والسبب وراء ذلك كله هو إغفال العرف الاجتماعى ، وإن كان الكلام صحيحاً بحسب عرف اللغة فصحى أو لهجة .

« يقول ماييه : فى كل وسط اجتماعى متجانس السكان نجد عادة أن للغة شيئاً من الوحدة ، بل إنه لشرط أساسى لوجود اللغة أن يحرص من يتكلمونها على استخدام نفس الوسائل للتعبير ، وهذا ما يدركه أفراد كل جماعة محددة ، فالخروج عن جادة اللغة يثير من يسمعونها ، ويعرض الخارج إلى السخرية على الأقل[1] .

« ويقول جسبرسن : كل شخص يحاول المحافظة على ما ثبت واستقر أو تعورف عليه ، فإذا خرج عن ذلك فالنتيجة أن كلامه لا يؤدى فكرته مطلقاً ، أو يؤدى ذلك إلى إساءة فهم ، لكن الغالب أن يفهم كلامه بصعوبة ، إذ يحس سامعوه بشذوذ فى اختيار الكلمات أو التعبيرات أو النطق[2] .

ويقول بلومفيد : الجماعة التى تستعمل نظام الكلام بطريقة موحدة تكون جماعة لغوية واحدة ، ومن الواضح أن قيمة اللغة تعتمد على من

---

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة ص ٨١ .

(٢) Language, its Nature, Development and Origin, P. 282

يستعملونها بنفس الطريقة ، وكل فرد فى هذه الجماعة ينبغى أن يعبر عن كل مناسبة بالكلام المضبوط ، وكما يقوم بالاستجابة الصحيحة حين يسمع أحد أفراد هذه الجماعة ينطق نفس اللغة ، يجب إذن أن يتحدث بوضوح ، وأن يفهم أيضا ما يقوله الآخرون[1] .

فى النصوص السابقة شرح المقصود بالعرف اللغوى بأنه نظام اللغة « على ما ثبت واستقر أو تعورف عليه » ـ كما يقول جسبرسن ـ أو ما أسماه مايه « جادة لغوية محددة » ، وأن الذى يحمى هذا النظام اللغوى المتعارف عليه هو الجماعة اللغوية التى تستعمل الكلام على نظام معين وبطريقة موحدة ، وأن من يخرج عن جادة هذا النظام يؤدى به ذلك إلى إثارة السامعين عليه وسخريتهم منه .

هذا هو المقصود بالعرف اللغوى ، وقد حدده « بلومفيلد » بقوله : « يجب إذن أن يتحدث بوضوح وأن يفهم أيضا ما يقوله الآخرون » وهذا الوضوح والفهم لن يتحققا لمستعمل اللغة دون مراعاة عرفها كما تستخدمها الجماعة التى استخدم المتكلم لغتها .

والخلاصة أن المستوى اللغوى يعتمد أساساً على عنصرين مهمين هما :

(ا) المطابقة للعرف الاجتماعى .

(ب) الوضوح الذى يتحقق بمراعاة العرف فى نظام اللغة أصواتاً وصيغا ومفردات وتراكيب .

أما عن « اللغة بين التوقيف والعرف » فإن المقصود « بالتوقيف » وجود سلطة خارجة عن اللغة من حقها التصويب أو التخطئة ، سواء أكانت

---

(١) Language, P. 29

هذه السلطة هى القواعد النحوية أم جهة من جهات الاختصاص اللغوى حيث يتخذ أحدهما أو كلاهما حكما من حقه أن يأمر بالصواب وينهى عن الخطأ فى استعمال اللغة .

وفى مقابل ذلك يوجد « العرف اللغوى » الذى قوامه — كما تقدم — نظام اللغة المعينة على ما ثبت واستقر بين الجماعة التى تستعملها، والذى يحميه سلطة غير منظورة — لكنها موجودة — هى سلطة الجماعة كلها ، والتى يحرص أفرادها على مراعاة عرفها اختيارا دون تحكم ، لأن العرف اللغوى — كما يقول جسبرسن — لا يقوم على أساس أفضلية عمل على عمل ، أو حديث على حديث ، بل هو مجرد قبول لما تجرى عليه العادة ومن الأمور المعروفة فى مناهج البحث فى العلم أن من صفات الظواهر الاجتماعية صفة القهر Contraint التى تحمى بها هذا القبول الاختيارى من الأفراد لعرف الجماعة .

فعلى أى هذين الأمرين — التوقيف أو العرف — تعتمد سلطة الصواب والخطأ ؟

إن ملاحظة واقع الاستعمال فى اللغة يمكن أن تتخذ دليلا يقدم بين يدى الإجابة على هذا السؤال . فالفرد حين يستعمل لغة الجماعة التى هو عضو فيها أو لهجة البيئة التى نشأ بينها لا يتوقف استعماله على قواعد مقننة أو هيئة ذات اختصاص ، ولو كان الأمر كذلك لما تمكن عوام الناس — الذين لا يحذقون معايير النحو ولا يسمعون عن جهات الاختصاص وربما لا يعرف الكثيرون منهم القراءة والكتابة أصلا — من الحديث بالمرة ، مع أن الأمر فى الواقع على خلاف ذلك تماما ، إذ نجدهم يستخدمون لغتهم بطريقة تلقائية سهلة ، وهذا لا يعود إلى أن لغتهم لا تشتمل على قواعد ونظام — كما هو شائع عنهم

خطأ — فالحق أن للهجات العوام قواعد أشد صرامة من قواعد اللغات المكتوبة كما تدل على ذلك المشاهدة والملاحظة . فلو انتقل أحد أبناء القرى إلى قرية أخرى تتكلم لهجة مغايرة للهجته ، فإنه يلحظ على الفور الفروق الدقيقة — فى الأصوات والكلمات وتأليف الكلام — بين لهجته وهذه اللهجة الغريبة عنه ، فما معنى ذلك ؟ .

معناه بوضوح أن المستوى الصوابى الذى يراعيه هؤلاء مرجعه إلى الاستعمال لا إلى القواعد ولا إلى جهات الاختصاص .

ولنأخذ نموذجاً آخر لنقاش حاد دار فى مجمع اللغة العربية منذ سنوات قلائل — نشرته الصحف فى حينه — حول اختيار لفظ بديل لكلمة « التليفزيون » ، وكان المرحوم « على الجارم » قد كتب مقالا منذ أكثر من ثلاثين عاما حول هذا اللفظ صدره بكلمتين إحداهما بالحروف الأجنبية هى كلمة « Television » والأخرى بحروف عربية هى « المِرْنَاة » واقترح أن تستخدم الكلمة الأخيرة بديلا عن الأولى . لأن الفعل ( رَنَا ) يدل على السمع والنظر فى العربية ، « والمرناة » على هذا هى آلة السمع والنظر .

وحين استخدم « التليفزيون » فى بلادنا اقترح الأستاذ محمود تيمور اصطلاحاً آخر من كلمتين هو « الإذاعة المرئية » وفعلا استخدمه بعض المذيعين فى الإذاعة والتليفزيون أيضا ، ولما عرضت التسمية التى اقترحها الأديب الكبير على أعضاء المجمع انقسموا إلى حزب « المرناة » وحزب « الإذاعة المرئية » واتخذت الصحف من ذلك الموضوع مادة للدعابة والفكاهة ، أما الجمهور فقد ترك أعضاء المجمع — وهم سلطة لغوية مختصة — فى نقاشهم ، واستخدم — وما يزال — كلمة « التليفزيون » وأصبحت هى الشائعة بقوة الاستعمال .

فالاستعمال أو ما أطلق عليه العرب قديما « السماع » هو الفيصل فى الصواب والخطأ .

يقول فندريس : كأن هناك عقدا ضمنيا أقامته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة فى الصورة التى توجهها القاعدة ، وكثيراً ما ترجع هذه القاعدة إلى الاستعمال ، ولكن الاستعمال غير التحكم ، بل هو ضده على خط مستقيم ، لأن الاستعمال خاضع لمصلحة الجماعة ، وهى هنا حاجتها إلى أن تكون مفهومة (١) .

فما أطلق عليه العرب قديما لفظة « السماع » وأسماه « فندريس » قواعد الاستعمال التى ترجع لمصلحة الجماعة وهى حاجتها إلى أن تكون مفهومة هو نفسه « العرف اللغوى » الذى يرجع إليه الحكم بقبول اللغة أو رفضها .

ويبقى بعد ذلك احتراز مهم لابد من الإشارة إليه فى هذا المقام هو أننا لا ندعو بذلك إلى إلغاء القواعد والانصراف عن جهات الاختصاص اللغوى ، بل الذى ندعو إليه أن تكون القواعـــد والمعايير متفقة مع استعمال اللغة وتطورها ، وألا تتسم بالتحكم والجمود ، فتفرض قواعد مرحلة على مرحلة أخرى ، وأن يؤخذ فى اعتبار جهات الاختصاص طبيعة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تخضع للعرف الاجتماعى العام ، وللعرف اللغوى الخاص ، وحينئذ ينبغى أن يتوافق مايقترحونه من آراء أو ألفاظ أو صيغ أو قواعد مع هذا الفهم .

٣ ــ الاقتصار فى اللغة على زمن خاص وبيئة خاصة

يراعى الناطق باللغة فى نطقه عرف البيئة التى ينتسب إليها ، فبيئة الفصحى

(١) « فندريس » اللغة ص ٣٠٤ .

مثلا تختلف عن بيئة اللهجات ، إذ تستعمل الأولى عادة فى المواقف الجدية والعامة خطابة أو تأليفا أو محادثة ، وهى بذلك ترتبط ببيئة خاصة هى البيئة المثقفة فعلا أو التى يفترض فيها الثقافة ، وهى أيضا المستوى الذى يراعى فى مواقف الخطاب العام الذى يتخطى حدود الإقليم الضيق فعلا — كما فى أجهزة الإعلام الحديثة — أو يفترض أنه يتخطاه إذا ما تجمع فى مكان واحد أفراد من أقاليم متعددة يتفاهمون جميعاً بلغة واحدة مشتركة .

واللهجات عامة ذات بيئة خاصة ، إذ تستخدم عادة فى شئون الحياة العادية ، ولعل هذا يفسر تعدد لهجات اللغة الواحدة وتنوعها ، إذ تختلف لهجات القرى بعضها عن بعض ، كما نجد هذا الاختلاف نفسه بين لهجات البدو بعضها والبعض من جهة ، وبينها وبين الحضر من جهة أخرى ، بل إن المدينة الواحدة تتعدد فيها اللهجات بتعدد الأحياء أو الحرف ، فلغة الصيادين مثلا تختلف عن لغة النجارين وعن لغة المثقفين ، بل إن لغة الشعر تختلف عن لغة النثر بين المثقفين أنفسهم ، ويرجع ذلك كله إلى اختلاف البيئة واختلاف شئون الحياة التى تهم كل واحدة منها .

فالبيئة الخاصة تحدد المستوى الصوابى لمن يستعمل اللغة ، ولأمر ما قال الكسائى قديما : حلفت ألا أكلم عاميا إلا بما يوافقه ويشبه كلامه ، وقفت على نجار فقلت له « بكم هذان البابان » فقال ( بسلحتان يامصفعان ) (١) .

« يقول فيرث Firth : إن كلام الجماعة المتزاملة لغويا يعتبر شيئا مختلفا عن كلام أولئك الذين لا ينتسبون لنفس الجماعة ، وإن هذا الكلام كما يعد رابطة بينهم هو فى الوقت نفسه حد مميز يخرج غيرهم منهم (٢) .

---

(١) أخبار الظراف ص ٧٧ .

(٢) Papers in Linguistics, P. 186

فالجماعة المتزاملة لغويا تستعمل فى لغتهـا أصواتا وتنغيما ونحوا ومصطلحات وصيغا وألفاظا متماثلة ، إذ يربط بينهم — كما يقول فيرث — ما يتقاسمونه من تجارب مشتركة ، وهم يستمسكون بهـذا التماثل ويحرصون عليه ، لأنه شرط الفهم والإفهام فى بيئتهم الخاصة ، وإذا أخل أحدهم بهذا النظام المتماثل ، حكم على نطقه بالغرابة والشذوذ ، إلا أن ترضى البيئة عن هذا الشذوذ نفسه ، وحينئذ تنفى عنه هذه الصفة ، ليسمح له بالدخول إلى حيز الاستعمال العام المقبول .

أما اقتصار المستوى الصوابى على زمن خاص فهو ما يتفق فى استعمال اللغة مع الواقع المشاهد ، فالمرء ينطق اللغة على حسب نظامها الذى وجدها به فى عصره ، إذ تتغير اللغة من عصر إلى عصر ، وقد يكون هذا التغير بطيئا لايظهر إلا بعد مرور جيل أو أجيال ، لـكنه تغير يحدث فعلا ولاينفيه بطء حدوثه ، أو طول الزمن به .

والأفراد يكتسبون اللغة من بيئتهم وفى عصرهم الذى عاشوا فيه ، وبناء على ذلك يراعون اللغة كما تنطق فى عصرهم لا كما كانت تنطق فى عصور سبقت ، ولا كما ينبغى أن تنطق وفق نموذج مثالى لعصر ذهبى غيبته الأيام .

وقد أشار لهذا المعنى ابن رشيق بقوله « قد تختلف المقامات والأزمنة والبـــلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن فى بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره . ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة »[1] .

---

(١) العمدة ج ١ ص ٥٨ .

وربما قصد ابن رشيق مما قرره من الاختلاف والاستحسان استعمال اللغة فى مستواها الأدبى لا اللغوى ، لكن الأمر فى الحقيقة لا يختلف ، فكما يتغير العرف الفنى للغة من عصر لعصر ، يتغير العرف اللغوى أيضا بطريقة مماثلة ، والفرق لم يكن فى هذا التغير ، بل كان فى نظرة الدارسين العرب له ، فقد اعترف به دارسو الأدب — ومنهم ابن رشيق — فتطورت دراستهم مع العصور ، ورفضه دارسو اللغة — مع أنه أمر واقع — فتوقفت قافلتهم عند عصور خاصـــة رفضوا تجاوزها . أما اللغويون المحدثون فإنهم يأخذون التغير فى اللغة باعتبار العصور مأخذ الضرورة الواقعة . وينظرون — بناء على ذلك — إلى نشاط مستعمل اللغة بعين عصره ، مقتصرة تلك النظرة فى قياس هذا الاستعمال على العصر الذى حدث فيه ، دون عصور سابقة أو لاحقة .

يقول سترتفنت Sturtevant : تضع مدارس النحو الوصفية نصب عينيهـــا تقديم المساعدة فى تعلم اللغـة فى فترة معينة من فترات تاريخها مفترضة أن اللغة نظام معين من الصيغ يستخدم بطريقة خاصـة ، وأن المستعملين للغة ينظرون إليها على أنها ثابتة Static مع أنها فى الحقيقة تتغير باستمرار(١) .

فمهمة النحوى تقديم المساعدة فى تعلم اللغة فى فترة خاصة مع افتراض ثباتها فى تلك الفترة — كما يحس بذلك المستعملون لها ظاهريا — مع أنها فى الحقيقة تتغير باستمرار ، وهـذا التغير يخضع له متكلم اللغة فى نشاطه دون تعمد ، ويجب على الباحث مراعاته أيضا عند وصفه لهذا النشاط .

---

(١) An Introduction to Linguisct Science, P. 53

## ٤ ــ اعتبار التطور فى اللغة

اللغة ــ أية لغة ــ فى حركة دائمة ، ويؤدى ذلك إلى التغير فى مختلف مظاهرها أصواتا وصيغا ومفردات وتراكيب .

والتطور فى اللغة يعود إلى طبيعتها الاجتماعية ، إذ هو سمة من سمات الظاهرات الاجتماعية المختلفة، فهى فى اندفاع مستمر لا يد لأحد على إيقافه ، ووضع القيود والمعايير فى طريقه ، كما أنه لا قدرة لأحد على مخالفته أو الخروج عن مقتضى التوافق معه .

هذا التطور المستمر فى اللغة لا يوصف بأنه اتجاه إلى الأحسن أو الأقبح أو أنه تطور إلى الارتفاع أو الانخفاض ، أو الصحة أو الفساد ، فليست اللغة العربية الفصحى مثلا فى القرن الأول الهجرى أصح منها فى القرن الثانى أو الخامس ، وبالمثل لا ينسب إلى لهجات العصر الجاهلى من التفضيل والتميز ما تحرم منه اللهجات التى تنطق الآن بين قبائل الجزيرة العربية التى تقطن الأماكن التى وجدت فيها اللهجات العربية القديمة ولا اللهجات التى تنتشر الآن فى العالم العربى على تنوعها واختلافها ، كما أن العكس أيضا غير صحيح ، بأن ننسب إلى اللغة المشتركة أو اللهجة التى وجدت فى فترة أكثر حضارة صفات الرقى والتفضيل ، لأنها تعبر عن تجارب أرقى لم تتوفر لما سبقها فى الزمن .

فاللغة أو اللهجة لا تقاس صلاحيتها بحسب التقدم أو التأخر فى الزمن ، والرقى أو التأخر فى الحضارة ، بل بحسب قدرتها على أداء دورها الاجتماعى بين من ينطقونها ، إذ تستجيب للتعبير عن تجاربهم ومظاهر حياتهم وتحقيق الاتصال والتفاهم بينهم .

يقول أولمان Ullman : اللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال وبالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا فى بعض الأحايين ، فإن الأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغيير والتطور ، ولكن سرعة الحركة والتغير هى التى تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة (١) .

ويوضح أولمان - متفقا فى ذلك مع رأى غيره من اللغويين المحدثين — كيفية التغير فى اللغة بأنه يقع على مرحلتين : الأولى هى مرحلة التغير نفسه وما يطلق عليه « الابتداع والتجديد » Innovation ويحدث هذا فى الكلام الفعلى، وقد يقوم به فرد من الأفراد بإدخال عناصر جديدة فى استعمال اللغة ، والثانية هى مرحلة « انتشار التغير » Dissamination بأن تتداوله الجماعة فيما بينها ، وإذا حدث ذلك أصبح التغير عنصرا من عناصر نظام اللغة ، ما دام قد سمح له بالاستعمال العام بين الناطقين بها .

فالتغيير يبدأ أولا فرديا بما يدخله فرد أو أفراد على نظام اللغة من استعمالات جديدة ، مما ينظر إليه أولا على أنه مخالفة لما عليه الجماعة ، فإذا قدر لهذه المخالفات أن تلقى قبولا من غيرهم ، فإنها تأخذ الطابع الاجتماعى العام ، وتصبح القاعدة التى يتبعها كل الناطقين باللغة .

ينقل « يسبرسن » عن بعض اللغويين العبارة المشهورة الآتية : « إن تاريخ اللغة ليس سوى تاريخ الأخطاء اللغوية فيها » (٢) — والمقصود من هذه العبارة هو وصف الكيفية التى يتم بها حدوث التطور فى اللغة ، إذ يبدأ أولا فرديا ثم يصبح اجتماعيا، لكن التعرف عليه بوضوح لا يظهر إلا بمرور وقت قد يطول أو يقصر ، لكنه موجود على كل حال .

---

(١) دور الكلمة فى اللغة ص ١٦٥ .

(٢) اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٥٦ .

إن اعتبار التطور فى اللغة بتغيرها من جيل إلى جيل آخر على فترات تتخللها — كما يقول أولمان — تغيرات وانحرافات دائمة يستتبعه بالضرورة تغير ما يراعيه المتكلم على حسب العرف اللغوى الجديد الذى يفرض نفسه عليه كى يتوافق معه ، ويترتب على ذلك أن مستعمل اللغة لا يطالب بغير مراعاة المستوى الصوابى فى اللغة الذى اكتسبه من الجيل الذى هو أحد أفراده ، ومن عرف العصر الذى عاش فيه .

أما الباحث فى اللغة فينبغى — لكى تكون دراسته سليمة المنهج — أن يضع فى ذهنه هذا الاعتبار جيدا ، وإذن فليس من حقه أن يفترض فى اللغة التوقف عند فترة معينة أو جيل خاص أو عدة أجيال ، فإن هذا — فى حقيقة الأمر — تجميد للدراسة لا للغة ، فاللغة من طبيعتها التطور المستمر الذى لا يد لأحد على إيقافه وتحديده — على ما سبق شرحه — فافتراض هذا التوقف يؤدى فى الدراسة إلى نتائج خطيرة . إذ ينصرف الجهد حينئذ إلى النظر فى الدراسة بدلا من ملاحظة اللغة ، فتصطبغ حينئذ بالتفريع والاضطراب والجهد الذهنى العميق ، مما لا حاجة باللغة إليه ، كما أن افتراض التوقف فى اللغة من شأنه أن يرغم الباحث على فرض ما لاحظه عنها فى فترة من فتراتها على فترة أخرى أدى إليها تطورها ، وهذا عكس لمهمة الدارس من الوصف إلى التحكم ، ومن الملاحظة إلى المصادرة .

## ٥ — المستوى اللغوى نشاط للمتكلم يصفه الباحث

المستوى الصوابى ينسب إلى مستعمل اللغة ، فهو معيار اجتماعى تراعى مطابقته من الناطق لا من الدارس ، هو مما توصف به اللغة لا قواعد اللغة ، شأنه فى ذلك شأن الأمور الاجتماعية كلها ، من التقاليد والعادات والدين

والمساكن والحفلات ، حيث يراعى فيها كلهـــا العرف الاجتماعى العام وما يقرره من سلوك خاص بكل واحد منها .

والمستوى الصوابى بالنسبة لمتكلم اللغة لا ينطبق تماما على ما يسميه اللغويين المحدثون « الصوغ القياسى Analogic Creation » ، لأن الصوغ القياسى يراعى فيه العرف اللغوى الخاص ، بمعنى : مراعاة القواعد العامة المشهورة فى صياغة الكلام والعبارات ، على حسب نظام اللغة المستعملة فى الأصوات والصيغ والمفردات وتأليف الكلام ، أما المستوى الصوابى فلابد لتحققه من مراعاة أسس أخرى مع ذلك ، أهمها — كما سبق — العرف الاجتماعى والبيئة والعصر واعتبار التطور فى اللغة ، وبعبارة قصيرة : أن الصوغ القياسى يتحقق بمراعاة العرف اللغوى الخاص ، ولكن المستوى الصوابى يشترط مع ذلك العرف الاجتماعى العام وما يستتبع ذلك من شروط البيئة والعصر والتطور .

أما الباحث فى اللغة فينبغى أن يقتصر عمله على الملاحظة والوصف ، فسكانه الصحيح وراء النشاط اللغوى لاستقرائه وملاحظته وتصنيفه ، وليس من حقه أن يضع نفسه أمام هذا النشاط لتوجيهه ، وليس من حقه أيضا أن يتخذ من ملاحظاته وقواعده التى حصل عليها من وصف النشاط اللغوى فى فترة خاصة قوة يفرضها على فترة أخرى بالتحكم والمصادرة .

ومن أدق ما قرأته وأقواه عن موقف المتكلم والباحث من اللغة هذه العبارات للدكتور تمام حسان : اللغة بالنسبة للمتكلم معايير تراعى ، وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهى بالنسبة للمتكلم ميدان حركة ، وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهى بالنسبة للمتكلم ميدان حركة ، وبالنسبة للباحث موضوع دراسة ، وهى بالنسبة للمتكلم وسيلة حياة فى المجتمع ، وبالنسبة للباحث وسيلة

كشف عن المجتمع ، المتكلم يشغل نفسه بواسطتها ، والباحث يشغل نفسه بها ، ويحسن المتكلم إذا أحسن القياس على معاييرها ، ويحسن الباحث إذا أحسن وصف نماذجها (١) .

* * *

وفى ختام هذا الفصل ينبغى معرفة أن استعمال اللغة — كما يقرر ذلك المحدثون والأقدمون أيضا — يتدرج فى المستويات الآتية :

( ا ) اللغة المفهمة

(ب) اللغة الصحيحة

( ج) اللغة البليغة

والمقصود باللغة المفهمة — كما يقول جسبرسن — أن تكون أداة للإفهام فى أدنى درجاته ، حيث لا يراعى فى هذا المستوى غالباً عرف اللغة المستعملة وما يقرره من نظام فى الأصوات والصيغ والتراكيب .

وقد أورد أبو عثمان الجاحظ فى « البيان والتبيين » نماذج ينطبق عليها هذا المستوى فى استعمال اللغة العربية ، حيث كان الأجانب يستعملونها بقصد الإفهام مع التخليط فى نطقهم أصواتا وصيغا ومفردات .

ومستوى الإفهام يوجد ضرورة فى استعمال اللغة من الأجانب عن بيئتها ، ويمثل ذلك ما يلحظه المرء من استعمال الأجانب من الأوربيين للهجة القاهرة ، فقد يسأل أحدهم عن جامعة القاهرة مثلا فيقول ( الجامعة بتاع القاهرة تكون فين ) فهذا التعبير يفهمه كل فرد من أبناء القاهرة ، ويحقق لصاحبه مقصده فى الوصول إلى الجامعة ، ولكنه مع ذلك يثير فى نفس السامع من أبناء القاهرة إحساسا بغرابة هذا التعبير عن طريقته فى النطق ، فهو تعبير مفهم ، ولكنه غير صحيح بالنسبة لعرف لهجة القاهرة .

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٣ — ٤ .

أما اللغة الصحيحة فهى — كما يقول جسبرسن — فى درجة أعلى من كونها أداة للإفهام ، فلا تتحقق لها الصحـــة إلا بمراعاة أسس المستوى الصوابى التى خصص هذا الفصل كله لشرحها .

أما اللغة البليغة أو الفنية فإنهـا تتجاوز الصحة إلى « الجمال فى التعبير » يقول جراى Gray يمـكن تعريف الأدب بأنه استعمال الـكلمات استعمالا صحيحا تصور به الظلال الدقيقة للمعانى التى يرغب الـكاتب فى إثارتها ، وكلما كان الـكاتب أكثر تمـكنا من لغته التى يستعملها، كان أقدر على اختيار الأسلوب الأحسن (١) .

والبحث فى الظلال الدقيقـــة والأسلوب الأحسن هو بحث فى الأدب لا فى اللغة، وهو من خصائص متذوق النصوص لا من اختصاص من يحلل النصوص بطريقة موضوعية دقيقة ، وعلى هذا فإن مستوى « اللغة البليغة » يهمنا منه صحة اللغة لاجمال العبارة .

* * *

وبعد هذا الفهم لعناصر النظرة الحديثة للمستوى اللغوى ، فإننا ندرس فى ضوئها موضوعين من تراثنا هما ( الفصحى واللهجات ) و ( لغة النثر ولغة الشعر ) فهذه مستويات مختلفة تتفاوت فيها اللغة ، وهى مجال خصب من تراثنا ندرسها ابتداء كما فهمها علماء اللغة الأقدمون، ونعرضها بعد على مافهمناه فى هذا الفصل الأول من نظرة المحدثين للمستوى اللغوى ، لنفيـد من ذلك ما نراه متوافقا مع تراثنا وقيمنا دون غلو أو شطط ، ودون تعالم أو تحكم .

---

(١) Foundations of Language, p. 140